عاش مجاهدا ومات شهيدا

عبدالله بن الزبير

obeikandl.com

obeikandl.com

عبدالله بن الزبير

عاش مجاهدا .. ومات شهيدا

قصة عبدالله بن الزبير قصة عجيبة.

قصة إنسان عاش حياته مجاهدًا فى سبيل الله بالسيف. فما أكثر المعارك التى خاضها مجاهدًا فى سبيل الله ، منذ أن اشترك مع والده وهو مازال فى بداية شبابه فى معركة اليرموك ، إلى المعارك العديدة التى خاضها بعد ذلك مشاركًا جيوش الإسلام الزاحفة تنشر أنوار الله فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكان له بجانب جهاده بالسيف جهاد آخر أشد من الجهاد فى ميادين القتال ، وهو جهاده ضد النفس والهوى ، فما أكثر ما قاله الرواة عن عبادته وتهجده وكثرة صيامه وخشوع فى صلواته. وصفه ابن عباس بقوله:

«كان قارئًا لكتاب الله ، متبعًا سنة رسوله ، قانتًا لله، صائمًا فى الهواجر من مخافة الله ، ابن حوارى رسول الله، وأمه أسماء بنت الصديق ، وخالته عائشة زوجة رسول الله. فلا

obeikandl.com

يجهل إلا من أعماه الله».

هذا الرجل الذى لعب دورًا مهما فى التاريخ الإسلامى ، وبايعه البعض بالخلافة في ظل الحكم الأموى ، واستطاع أن يستقل بالحجاز فى فترة من أخطر فترات التاريخ الإسلامى ، نرى فى قصة حياته العديد من الأشياء التى يجب أن يتوقف عندها الإنسان ، ويضع تحتها خطوطًا ، متأملاً ودارسًا كيف يكون الرجال فى المواقف الصعبة ، وكيف يربى الإسلام المسلم على القوة والحكمة ومغالبة شهوات النفس والهوى، وأن يكون صلب العود ، مع أعدائه ، لينًا مع إخوانه ، سوط عذاب على أعداء الله.

والتاريخ يقول لنا إن عبدالله بن الزبير وُلِد عند قباء عندما هاجرت أسماء إلى المدينة ، وكان عبدالله لا يزال جنينًا فى أحشائها. وعندما وضعته وهى عند مشارف المدينة استبشر المسلمون خيرًا ، فقد كان قدومه إلى الدنيا خيرًا أزال أسطورة حاول اليهود تثبيتها فى عقول الناس ، وهى أنهم وكهانهم سحروا المسلمين، فلن يستطيعوا الإنجاب ما داموا فى المدينة.

وقد حمل الطفل الصغير إلى الرسول ﷺ حيث بلَّلَ النبى الكريم ﷺ فم الصغير بريقِه ليكون بذلك بركة للطفل الذى شاء

له القدر أن يكون ملء السمع وملء البصر.

ووسط بيئة عميقة الإيمان والإخلاص لله ولرسوله ولدينه ، شب عبد الله ، محبا للحكمة ، محبا لله ورسوله ، شجاعًا مثل والده الزبير بن العوام حوارى رسول الله ومثل أمه أسماء «ذات النطاقين». وكيف لا يكون كذلك وجدُّهُ هو أبو بكر الصديق ، أقرب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ وثانى اثنين إذ هما فى الغار؟!

ويشب الطفل الصغير قوى البنية ، ذكى الفؤاد ، جريئًا لا يهاب أحد ، حتى إنهم يروون عنه أن عمر بن الخطاب - وهو أمير المؤمنين، وعمر هو عمر بقوة شخصيته ومهابته - مر على أطفال يلهون فى أحد الشوارع ، وكان من بينهم عبدالله بن الزبير، فهرب الأطفال وتوارَوْا خوفًا من عمر ، وظل عبدالله بن الزبير فى مكانه؛ مما لفت نظر ابن الخطاب، فسأله:

- لماذا لم تذهب مع إخوانك يا غلام؟

ورد عليه عبدالله بهذا الرد العجيب الذى أعجب به بلا شك أمير المؤمنين:

« لم أكن مذنبًا فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيقًا فأوسعه لك يا أمير المؤمنين».

obeikandl.com

ويقول الرواة إن النبى الكريم ﷺ احتجم ذات مرة ، وطلب من عبدالله ابن الزبير أن يأخذ قطرات الدم التى خرجت منه ليـكبها فى مكان ما ، ولكن الصبى قرر أن يشربها؛ حتى يجرى فى ضلوعه دم الرسول الكريم ﷺ.

وتمضى الأيام بالفتى ، فإذا به أصبح شابا قوى البنية ، ذكى الفؤاد ، شجاع القلب ، فصيحًا ، بليغًا. وفى نفس الوقت أصبح شديد التدين ، كثير التهجد ، يصلى فيخشع فى صلاته كأنها ستكون الصلاة الأخيرة ، وعندما يدخل فى الصلاة يستغرق فيها تمامًا، فلا يشعر بمن حوله؛ لأنه بين يدى مولاه.

إنه يرى جيوش الإسلام تبدأ زحفها الساحق أيام جده العظيم أبى بكر الصديق ، فقد اندفعت جيوش الإسلام لتواجه أقوى قوى العالم فى هذا الوقت ، صاحبة الجيوش المدربة على البر والأساطيل فى البحر ، والتى تمتد أملاكها امتدادًا رهيبًا، فتشمل بجانب الشام مصر والشمال الإفريقى كله حتى المحيط الأطلنطى . هذه القوة الرهيبة يتصدى لها المسلمون ، الذين كانوا بالأمس القريب مجرد قبائل متنافرة متنازعة ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يمكنها مواجهة حاكم ، مجرد حاكم يحكم ولاية خاضعة للإمبراطورية التى لا تغيب عن ممتلكاتها الشمس.

فإذا بهذه القبائل بفضل دعوة النبى الخاتم ﷺ. قد أصبحت دولة واحدة ، دستورها القرآن ، وسنة رسول الله. وها هى قد أصبحت قوة فتية لا تخشى إلا الله ، يدفعها إيمانها العميق إلى التصدى لهذه الإمبراطورية العظيمة ، فإذا بعبد الله بن الزبير يطلب من والده ويصر أن يشترك معه فى هذه المعارك. وحارب بجانب والده فى صفوف المسلمين ضد الروم فى معركة اليرموك، حيث ظهرت بسالته وشجاعته القتالية.

فى الشمال الإفريقى:

وتمضى خلافة جده العظيم ، ويشاهد الفتى الزحف الساحق للإسلام فى خلافة عمر بن الخطاب ، حيث استطاعت جيوش الإسلام أن تحطم إمبراطورية الفرس ، وتحكم سيطرتها على الشام ومصر ، وتتطلع إلى الزحف الخالد فى الشمال الإفريقى.

وفى زمن الخليفة الثالث ذى النورين عثمان بن عفان ، يتوجه الجيش من مصر بقيادة عبدالله بن أبى السراح إلى الشمال الإفريقى لمجابهة البربر وقائدهم الجسور «جرجير» كما كان يطلق عليه العرب ، أو جريجورى كما كان يطلق عليه أعوانه.

كان هذا القائد عنيدًا فى جند كثيف ، يساعدهم الرومان ،

وطلب عبدالله بن أبى السرح من الخليفة المزيد من المدد ، فأرسل له عبدالله بن الزبير ببعض المدد ، وذهب الشاب الجسور، فعرف أن المعركة تدور بين المسلمين والبربر نهارًا ، ويستريح الجميع ليلاً، فقرر هو خطة جديدة تنهك العدو ، وعرضها على قائد الجيش الإسلامى، فوافقه عليها على الفور ، فقد قسم جيشه إلى فريقين، يحارب بفريق، وعندما يحل المساء ينسحب الفريق المقاتل، ويحل محله الفريق الثانى ، وهكذا لا يتركون للعدو فرصة للاستجمام أو التقاط الأنفاس، فينهك قواه ، ويرغمه على الاستسلام.

ونجحت خطة عبدالله بن الزبير ، وتقدم هو بنفسه ليقود معركة ضارية فى قلب الأعداء ، وتوجَّهَ كالسهم إلى قلب المعركة حيث جرجير، فأرداه قتيلاً ، ومالت كفة النصر لصالح المسلمين، وسرعان ما أذعن العدو للهزيمة بعد أن قتل القائد الذى كان يدفعهم دفعًا إلى مواصلة القتال.

وقرر عبدالله بن أبى السرح أن يذهب عبدالله بن الزبير بنفسه إلى الخليفة فى المدينة يبشره بنصر المسلمين الساحق ، بعد أن فتح الله عليهم ، وحققوا هذا النصر الذى جعل أبواب إفريقية مفتوحة أمام رايات التوحيد.

وأعجب الخليفة بالخطة التى وضعها ابن الزبير ، وفرح بنصر الله، وطلب من عبدالله أن يصعد المنبر ، ويحدِّث الناس عما حدث فى معركة إفريقية ، وبشر عبدالله الناس بالفتح الكبير فى كلمات معبرة وبليغة وموحية ، مما جعل السعادة تغمر الناس جميعًا ، وعلى رأسهم عثمان رضى الله عنه.

ومضت الأيام..

وحدثت الفتنة الكبرى التى راح ضحيتها عثمان رضى الله عنه ، واستشهد ثالث الخلفاء الراشدين.. قُتِل مظلومًا ، وقيل إنه عندما ضُرِب بالسيف وهو يقرأ القرآن فى رمضان تناثرت دماؤه ، ثم توقفت عند الآية الكريمة:

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقد كان عبدالله بن الزبير - مع سبطى رسول الله ﷺ الحسن والحسين - من الذين دافعوا عن عثمان ، ولكن لكل أجل كتاب، فقد استشهد أمير المؤمنين ، وأقبلت الفتن كالليل المظلم ، أو كالسحابة القاتمة ، فقد اندفع أوار الفتنة ، وأصبح المسلم يجابه المسلم ، وتوقفت الفتوحات ، وأصبح من العسير الخروج من هذه الفتنة التى لعبت دورًا خطيرًا فى مسيرة التاريخ الإنسانى.

obeikandl.com

وابن الزبير، رغم بطولاته وشجاعة موقفه، فإنه قد أخطأ فى حق الإمام على - رضى الله عنه - يوم جاء واحدًا من المحرضين عليه يوم الجمل ، بل إنه كان من أشد المحرضين لوالده الزبير بن العوام لقتال على.

والمعروف أن الزبير بن العوام رأى ذات يوم عليا وهو يسير بصحبة رسول الله ﷺ ، واتهمه - أى اتهم عليا - بأن به كبرًا، فقاله له الرسول الكريم : ليس به كبر. وسوف تقاتله وأنت له ظالم.

وتحققت نبوءة رسول الله ﷺ ، فعندما خرج الزبير لقتال علىّ ذكَّره الإمام بهذه الحادثة ، فبكى الزبير وقال أنه لو تذكَّرَ هذا ما خرج لقتاله ، وقرر عدم الاشتراك فى القتال بالفعل، وانسحب من المعركة ، إلا أن أحد الذين يبغون دوام الفتنة قتله؛ حتى يظل لهيب الفتنة مشتعلاً ، وذهب فرحًا يحمل سيف الزبير؛ ليعطيه هدية للإمام. وما كاد الإمام العظيم يعلم بنبأ مقتل حوارى رسول الله ﷺ حتى أجهش بالبكاء ، وقبَّلَ سيفه، وقال كلمته التى وعتها أذن التاريخ «هذا السيف طالما جلابه صاحبه الكرب عن رسول الله».

ولكن عبدالله على كل حال كان بشرًا ، والبشر دائمًا يُخطِئون ويُصيبون.

مواجهة معاوية

وتمضى الأيام ، وتنتهى خلافة على بن أبى طالب بمقتله على يد أحد الخوارج ، ويئول الحكم إلى معاوية ، ثم يرى معاوية أن يحول الخلافة إلى ملك عضوض وأن يرثه فى الملك ابنه يزيد.

وأراد أن يحقق مبايعة الناس له وهو ما زال على قيد الحياة ، يتخذ وسيلته إلى ذلك الوعد، حينًا ، والوعيد أحيانًا، والذهب فى أحيان أخرى ، وقد عرف عنه اللباقة والسياسة واللين، فهو صاحب الكلمة الخالدة:

«لو كان بينى وبين الناس شعرة ما قطعت ، إذا أرخَوْا شددتها. وإذا شدوا أرخَيْتُها».

وذهب معاوية إلى المدينة ليجتمع ببعض أصحاب الكلمة فيها، ولكنه عاد بخفى حنين ، وعاد مرة أخرى من دمشق إلى المدينة، وكله عزيمة هذه المرة أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ، واجتمع بكبار المسلمين، ثم أراد أن يهوِّنَ من أمر عبدالله بن الزبير ، وأنه ليس فى المكانة التى تجعله فى مصاف الرؤوس الكبيرة من قريش، فيرد عليه عبدالله بن الزبير ردًّا ألجمه حين قال له وسط جموع الناس:

« أسألكم بالله أتعلمون أنى ابن حوارى رسول الله ، وأن

أباه أبو سفيان ، وأن أمى أسماء بنت أبى بكر ، وأمه هند آكلة الأكباد ، وجدى الصديق ، وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر ، وعمتى خديجة ذات الحظ ، وعمته أم جميل حمالة الحطب ، وخالتى عائشة أم المؤمنين ، وأنا عبدالله، وهو معاوية ».

ويصر معاوية أن يأخذ البيعة لابنه ، وتعوزه الحيلة ، وعندما كان يستمع إلى آراء نفر من الصحابة ، تصدَّى له عبدالله بن الزبير ، وهو يعرض عليه اقتراحًا حول الخلافة ، وعلى معاوية أن يختار حلا من الحلول التى سبق أن مرت على المسلمين، وهو أن يترك الخلافة بالخيار، أى يختار الناس خليفتهم بلا وصية من أحد، كما فعل رسول الله ﷺ، فقد مات ولم يأمر لأحد بالخلافة أو يجعلها فى واحد بعيد عن أقاربه، أو كما فعل أبوبكر عندما أوصى باختيار عمر بن الخطاب ، أو يتركها للاختيار من ستة من المرموقين ، كما فعل ابن الخطاب على ألاَّ يكون من بينهم أحد من أقاربه. وقد أقر الناس هذا الرأى ، ولم يُجْدِ ذهب معاوية وسيفه.

وتمضى الأيام ، وينجح معاوية فى أن يولى ابنه يزيد مقاليد الأمور ، ولم يكن يزيد الذى يمكن أن تصل قامته إلى مستوى الخلافة الإسلامية بمسئولياتها الجسام ، وتأخذ الأمور مسارا آخر ،

فإذا بالحسين بن على يثور على ما صارت إليه الأمور ، وإذا به يندفع صوب العراق؛ ليتصدى ليزيد بعد أن أرسل إليه أهل العراق يبايعونه ويعلنون استعدادهم لنصرته.

ويذهب سبط الرسول متوجهًا نحو العراق ، ولكنه يُحاصَر فى كربلاء ، ثم تكون مذبحة رهيبة ارتكبها جنود يزيد ، عندما قتلوا آل الرسول ﷺ و وذبحوا الحسين بعد أن جاهدهم جهادًا شجاعًا، ولم يكتفوا بذبح سبط الرسول ﷺ، بل مثلوا به.

وترك هذا الحادث أثرًا كبيرًا فى النفوس ، فقد استبشع الناس انتهاك حرمات آل البيت ، وهم الذين قال الله -سبحانه وتعالى- فيهم:

﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وبدأ عبدالله بن الزبير يعود مرة أخرى إلى معركة السياسة ، وقرر التصدى لبنى أمية ، واستطاع أن يجابههم ، وأعلن نفسه خليفة، وكانت مكة مقرا لهذه الخلافة التى امتدت فضمت بجانب الحجاز مصر وخراسان واليمن والكوفة بعد أن بايعه أهلها على أن يكون خليفة لهم.

وظل يناوئ الحكم الأموى، إلى أن تولى الخلافة عبدالملك

ابن مراون ، الذى قرر القضاء نهائيا على ابن الزبير مهما كلفه ذلك. وأرسل الحجاج بن يوسف الثقفى جيشًا كبيرًا من أهل الشام ، وحاصروا مكة ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، وحاصروها حصارًا طويلاً، وانفض الناس عن ابن الزبير. وهنا يسجل التاريخ صورة من أروع صور النضال ، فى إطار مشرق جذاب يتجلى فى هذا الحوار الرائع بين عبدالله بن الزبير وأمه العظيمة أسماء بنت أبى بكر عندما عرض عليها الموقف وانفضاض الناس من حوله ، ويسألها النصيحة فتقول له:

«أنت أعلم بنفسك. إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فاصبر حتى تموت فى سبيله ، ولا تمكن رقبتك من غلمان بنى أمية.

وإن كنت تعلم أنك أردت الحياة ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك».

قال الابن البار فى هذه الساعات الرهيبة التى يعيشها تحت الحصار الظالم:

« والله يا أماه ما أردت الدنيا ، ولا ركنت إليها ، وما جُرْتُ فى حكم الله أبدًا ، ولا ظلمتُ ولا غدرتُ ».

وقال لها : « إننى أخاف أن يُمثِّل القوم بى».

قالت الأم العظيمة:

« لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها».

وتوجَّهَ الرجل الشجاع ليواجه الموت ، وأمه ترنو ببصرها إلى السماء: « اللهم ارحم طول قيامه فى الليل ، وظمأه فى الهواجر، وبره بأبيه وبى.

اللهم إنى أسلمته لأمرك ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين».

واستشهد البطل، وأبى الحجاج إلا أن يصلب الجثمان.

وذهبت الأم العظيمة التى اقترب عمرها من المائة خاشعة أمام جسد ابنها العظيم. وعندما تقدَّمَ إليها الحجاج مناديًا : يا أم، قالت بنت الصديق بكل شموخ:

« لست لك بأم ، وإنما أنا أم هذا المصلوب على الثنية».

وعندما علم عبدالملك بما فعل الحجاج أمره بدفن جثمان عبدالله.

وتنتهى أحداث حياة هذا البطل الذى تربى فى بيت الإيمان والتوحيد ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، محاربًا بسيفه أعداء الله فى الخارج ، ومن حاولوا أن يحولوا حكم الشورى فى الإسلام

إلى حكم ملكى مطلق ، ومات شهيدًا . وبقيت مبادئه وقيمه التى تمسَّكَ بها نور هداية لكل جيل يرى فى هذا السلف العظيم قدوة ومثالاً .

ويرى فى الاستشهاد فى سبيل المثل العليا غاية حتى يسود الحق ، وترتفع راية العدل ، ولا يصح إلا الصحيح .

وهذا ما يدعو إليه الإسلام: أن يعيش الإنسان فى ظل مجتمع تظله مبادئ الإسلام وقيمه ، ولا ينبغى السكوت على باطل ، أو الصبر على ضيم.

***

obeikandl.com